

أثر الدعاية السليمة في توجيه الشعوب

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوي

المدرس بالجماعة الأزهرية

لعل من أكبر الدلائل على عظيم قدرة البارئ وبديع صنعه أن خلق الناس من أب واحد وأم واحدة متحدين في الصورة مختلفين في المشارب والنزعات والميول والرغائب ، فلا تجد توافقاً تاماً بين شخصين أبداً حتى ولا بين الشقيقتين ولو كانا توأمين .

وقضية هذا الاختلاف ذات أثر فعال في أعمال الأفراد فكل فرد تواق إلى إشباع رغباته والاندفاع في تحقيق موحيات نزعاته ، وعلى هذا الاختلاف ينشأ إلى حد كبير خلاف في الأعمال العامة والاتجاهات المشتركة التي لا بد منها لحياة الفرد والجماعات ، والحياة لا بد لها من توحيد الاتجاه والعمل لتنفيذ الغرض المشترك السامى الذى لا بد منه لتقطع الإنسانية مراحل الحياة متماسكة متضامنة ضد عادات الدهر وصروف الزمان .

فذلك كان لا بد من قيادة رشيدة ، وإمامة حكيمة ، وزعامة منكورة ، وكان الناس شديدي الحاجة إلى من يوحد اتجاهاتهم ويوفق بين رغباتهم فيجد من طفيان هذا ويزيد في إحسان ذلك وهكذا يوجه الجميع وجهة سليمة صحيحة تهدف إلى الخير والسعادة ، وكان من اللازم كذلك أن يكون الموجه فرداً ممتازاً عن الناس بمواهب خاصة لا تيسر لسواه من عامة الناس .

ولهذا فقط اختار الله للناس نبياً رسولا من نوع البشرية إلا أنه يمتاز بمواهب متارة : ولذلك كانت جميع دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان هؤلاء المرسلون دعاة من أفضل الدعاة الذين هدبوا الإنسانية وقادوها أحسن قيادة ووجهوها توجيهها حسناً وساروا بها في سبيل السعادة والسلام ، وكان في الفترة بين الرسولين يقضي الله أناساً من خيرة البشرية متمرسين بأاليب أوائل الأنبياء يقومون بتنفيذ رسالة الأنبياء يرشدون الناس إلى طريق الخير والسعادة ، ويحولون بينهم وبين الشرور والآثام .

والذى يعنيننا من ذلك العرض العابر أن نبين أن دعوة الرسل كانت سليمة إلى أقصى حد فأثمرت أطيب الثمرات من تنسيق الحياة للناس وتهذيب الاجتماع وتمييد الطريق لاقافلة البشرية وقيادتها إلى سبيل السلام وتكوين الجيل تكويناً إنسانياً يعمل في غير ملال إلى الخير

والخير . و يحقق خلافة الله في الأرض ... وتبين كذلك ان دعوة غير المرسلين اثمرت ثمرا من لون ما اثمرته دعوة الانبياء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، وليس افضل اثرا من دعوة تيسر على الناس سبل العيش الرغيد ، وتمنع التشاحن والصدام ، وتقرر الامان والطمانينة في حياة اولاد آدم وحواء .

و يحكم قضية الاختلاف بين افراد الجماعة البشرية نرى ان الأمم تحتاج في كل أطوار نهضاتها إلى ذعاة مرشدين ، وقادة مصلحين ، لأن عقلية الجماعة دائما عقلية عامية سريعة اللغات قليلة الانتباه لا تنف كثيرا عند فلسفة الوقائع ومنتظتها ، ولا تدور معها تبحث وتحاول وتفتش وتنقب ، ومن هنا كانت الجماعة في حاجة ماسة الى من يبحث في فلسفة وقائمه ، ومنطق اتجاهاتها ويفرض ما لمتقدمات نتائجها من خير وشر ، ثم يقدم إليها ذلك بعيدا عن تعقيد الفلسفة ودوران المنطق ، بل يتلمس إلى مستقر الهوى في نفوس الناس كل سبيل لينفذ إليهم بهذه النتائج التي انتهى إليها في يسر وسهولة .

وإذا كانت الأمم في كل أطوارها في حاجة إلى ذعاة ، وإذا كان هؤلاء الذعاة هم عقل الأمة ولسانها ، وإذا كانوا على هذا الاعتبار خليقين ببعض الخصائص الممتازة في النفس والعقل ضرورة أنهم بنفوسهم وعقولهم إنما يعدون المستقر ويبيثون المسأل بليل قادم ، ويشرفون على جيل حاضر يسايرهم ويسايرونه .

أقول إذا كانت الأمم والذعاة على هذا الوضع فان الموقف يختلف في كل شعب عنه في بقية الشعوب والجماعات ، فان لتقاليد الشعب وماضيه ، ومميزاته الجندية والعقلية ما يجعل مشكلة كل شعب تتلون بلونه الخاص ، فلا بد لها من حل يتفق وطبيعة هذا اللون الخاص يسرا وسهولة .

ولعل أدوار الانتقال هي أهم الأدوار التي تجتازها الأمم وأعتقد أنها . ومن ثم فان الجماعات في أدوار الانتقال هذه تكون عرضة للاتجاه الحاطع في كثير من الأحيان حيث لم يستقر في أذهان أفرادها هدف خاص ولم تتخذ بعد طريقا واضحا تسير عليه . وإنما الأمر لا يعدو أن يكون في عقلية الجماعة رغبة في الهدم وطموحا للبناء لا أكثر ولا أقل . فلم يكن في عقلية الجماعة ساعتهذ اتجاه الى أى شىء آخر كأن يفكر في ما الذى يهدم من القديم وما هو الأسلوب الذى سينبى عليه الجديد ؟ وما الفرق بين المهدم والمبنى ، وهذه أسئلة لا تختلج كثيرا في نفوس الجماعة في هذا الدور . فهي تصفق لكل هدم مهما كان المعول الذى يحطم . ولا تنظر الى عاقبة هذا التحطيم ومهما كان الصرح الذى ينهار . ولو كان في انهاره تقويض المجد الذى بناه أبائنا الأولون . . وكان ثورة الحماسة للنهوض البراق المزعوم لاتدع مجالاً كبيراً

لرؤية الجماعة . وهي كما قدمنا حاسة لاتكاد تكون ، وحوظة الأثر في عقليتها . فسواء أكان الذي يتحطم من صميم ذات الشعب وتقاليد أم كان من توافه العادات فإن هؤلاء المهادمين سوف يجدون من بين الجمهور دائما أيدي تصفيق وألمسة تاهج بالثناء وأفئدة تدفع الى التشجيع .

وهذا الوضع أو قريب منه كل القرب هو مشكلة عصرنا في بلدنا هذا . فإنه لم تكد المدنية الحديدية ترمي الى عيوننا بشماع واحد من أشعتها حتى تدافع سواد الناس الى مصدر هذا البريق مهطعين . وفي غير أناة أو روية نبذوا خلفهم كل شيء ، ونسوا قديمهم ببحيره وشره ، واستحثوا المطى الى غاية لا يعرفون عنها غير بريقها الخلاب الذي أغراهم بهذا السير واجتذبتهم بمغناطيسية لمعانه فنشأ مع ذلك دعاة للحديد على وضع لم يستقر بهد في أذهانهم لأن الأمر كان على وحى السرعة المتعجلة التي تريد أن تصل ولا شيء بعد أن تصل - ودعاة للقديم لا يعرفون عن أمر هذا الحديد شيئا وتغلغل كراهيته في نفوسهم لالشيء سوى أنه جديد . بل لا يعرفون عن قديمهم غير بعض الأوضاع المسترخية التي لاتقوم شعبا ، ولاتنهض بحياة .

وسواء كان الباعث على هذه السرعة في الأخذ بالحديد والدعوة اليه في حرارة جهود أصحاب القديم ، وتحكمهم في عقول الجماهرة الكبيرة من الشعب ، واندفاع أصحاب الحديد في غير أناة وبصر بالعواقب ، فان افكار الناس قد تجاذبها تياران عيفان وكان تحمال في ناحية وحفاظ في أخرى أو ما يقال عنه رجعية وتطور . وكان لمظاهر الحياة الحديدية التي صرنا اليها ، وما نتج عنها من اختلاط الشعب واختلاط ألوان الحياة فيه عناصر جديدة تتفق مظاهرها الى حد كبير ومظاهر الدعوة التي يدعون اليها ، كما كان لوضع هذه العناصر الأجنبية بعض الأثر في انتصار الدعوة الحديدية .

وسواء انتصر هذا أو ذاك فان الذي يعنيننا في الأمر أن ندرك أن أحد هذين العنصرين من الدعاة أو هذين اللوين من الدعوة لم يكن عن دراسة من الداعية وتحجس وهدى من دراسته وتحيصه . ولهذا فقد اختلط الأمر على الناس حينما ثم اندفعوا في غير روية مع أنصار الحديث . وكانوا مندفعين حتما رضوا أم سخطوا لأن العوامل الاجتماعية لا تقف كثيرا عند رضى الراضين . ولا يعوقها عن السير في سبيلها سخط الساخطين ... وكان ما كان ...

وأخيرا تمخضت هذه الثورة الاجتماعية عن وضعنا الحالي الذي لا يزال يتخبط بعض التخبط وان كان قد استقر في مدرجة الفساد كثيرا من الاستقرار .

ولما كانت الثورة الاجتماعية من أجل الحديث قد اعتمدت في أول بنائها على نسيان كل القديم ، ما اتصل منه بطبيعة الشعب ومالم يتصل ، فقد بدأت الجماعة تحس مقدار ما فقدت من أجل هذا التطور (بعد أن ذهب السكر وجاءت العكرة) .

فالشعب اليوم لا يجد مميزاته ولا مقومات ذاته فتقومات حضارته تهمل صريح
عن مدهام الحضارات الأجنبية حتى لا يكاد أحد الأجانب من التزلاء يحس فرقا كبيرا
بين ما شيدته حركة التطور في مصر وما يبعده في بلاده كل يوم وفي كل مكان .

وإذن فأين وضعنا الخالص بين الشعوب ؟

أين الصانع المصري الحديث في الفن أو في الأدب ، في البناء والعمارة ، في الألعاب
أو في وسائل التسلية ؟

أين الطابع الجديد في التقاليد أو العادات أو في أي مظهر من مظاهر حياتنا قل أو عظم
تفه أو جل ؟

الجواب لاشيء بكل أسف فنحن لم تعد غير بوق يدوي بما يوحى إليه ولكنه لا يقول
من نفسه شيئا . وإذن فما العلاج ؟

وحل تقوم لأن يهدم الجديد كله كما هدمنا القديم كله؟ وإذا كان لا بد من الهدم، فكيف
نسلك السبيل إليه ، بعد أن تمكنت بعض مظاهر الجديد من نفوس الناس واتخذت لها
في حياتهم مجرى في شرايينهم واحتلت قرارة أنفسهم مستقرا ومقاما ؟

وهنا يبدأ دور المرشدين الاجتماعيين . وهنا يأتي مكان الدعاية السليمة . وهنا تظهر
قوة الدعاة وحكمتهم ونتائج أعمالهم وأثر دعاياتهم . فبالدعوة السليمة نستطيع أن ننتزع من
النفوس كثيرا مما رسخ فيها وانستقر .

والخطوة الأولى في هذه الدعوة الجديدة يجب أن تقوم على تحديد الهدف الذي نسعى إليه
ونستمد منه عوامل القوة والمضاء فنحدد موقفنا أولا من الحضارة الحديثة . ونعرف ما يتفق
متها وما ضينا الطويل وتتنايدنا العتيبة . . . فالتقاليد والماضي هما نقطة الاتصال بالحاضر
ولا حاضر لمن لا ماضي له . وإذا استطعنا أن نتعرف على ماضينا قريبه وبعيده وتدارسنا
عوامل القوة والضعف فيه فقد تفهمنا شخصيتنا الكامنة في خطوة من خطوات حياتنا وكان
لهم هذه الشخصية تجاوب فعال في صميم نفوسنا .

أنا تعرفنا الماضي بهذا الوضع استطعنا أن نتخذ من حركة التجديد وسائل لتجميل
شخصيتنا والموض بها لا وسيلة من وسائل هدم هذه الشخصية . وبتركيز هذه الشخصية الشعبية
في نفس كل فرد ينشأ لنا فن جديد وأدب جديد وتقاليد جديدة باعتبار ما نحن فيه لانتختلف
مع ماضينا الطويل في غير المظهرية . وبهذا نجد لنا وضعا بين الشعوب بعد أن عشنا بلا وضع
خاص ويمكننا أن نسير في دعوتنا الجديدة على سنن من هذه الشخصية . على أن الدعوة للخير

والاصلاح يجب أن تتوافر لها أدواتها ووسائلها وأن يكون بين القائمين، عامها رجال الحكم فلا يفرضوا لأنفسهم وضعا خاصا دون الناس ولا يتدكرون أسر الدعوة لبعض الداعين لها ثم يتقدموا هم بعد ذلك للشعب أمثلة لا تتفق والاتجاه الذي يريدون من دعواتهم فأكبر عائق للدعوات أن يتقدم الشعب الى طبقات يصدف بعضها عن مسابرة الإصلاح .

وبتضافر الحكام مع القائمين على الدعوة للإصلاح نستطيع أن ننبؤ أن مبتكرات الحضارة نفسها وسيلة للإصلاح بعد أن كانت بالأمس من وسائل الافساد . وإذا استطعنا أن نحيط الدعوة الى الخير والاتجاه اليه على هذا الوضع من تعرف شخصيتنا الخاصة بوسائل من الإغراء والاستمراء فإن ميلنا الى تركيز تعالينا الجديدة في النفوس معبدة آمنة .

بقيت نقطة واحدة هي شخصية الداعية . ولعل أكبر مانع فيه من الخطأ في دعوتنا هو عدم عنايتنا بتخيار الداعية . فلا يزال الداعية برغم أنه لا عمل له واضح الحجة يبين في عمله كما يمين القائمون على الأعمال الآلية من الكتبة ورجال الحفظ وغيرهم من غير اختيار خاص نكشف به سيطرة شخصيته على سواه ومدى استعداده لدور القيادة ، فالداعية قائد اجتماعي ولا شك في ذلك .

وكما فكرنا في اختيار الداعية فكما كذلك من ناحية أخرى في العاية به وإظهاره بين من يدعوهم في وضع اجتماعي ممتاز . فلا تزال طبقة المرشدين والدعاة طبقة ضئيلة الدخل لا تجد لها في الهيئة التي تعيش فيها وضعا محترما مهيبا في نفوس الناس . وبفقدان الداعية هذا المعنى نراه يتحول الى ذليل أو ناقر وأيس من المتصاحبة في شيء أن نكل توجيه الشعب الى ذليل كبير . ولا الى ناقر نوار لا يستقر . وكف يفكر للشعب من يعيش في فاقة واقبال بين الشعب وهمه الذاتي يأخذ كل تفكيره ويشمل كل وقته .

أما تكوين الداعية وهو أمر خطير فلا نزل بعيدين كل البعد عن التفكير فيه تفكيراً منتجاً وأستطيع أن أقول ولو أغضبت الكثيرين إن من يصلحون ثقافيا للقيام بدعوتهم في هذا البلد الطويل العريض لا يتجاوزون عدا أصابع اليد الواحدة أو اليدين .

ولعل السر في ذلك ما في سياسة تعليمنا نفسها من تحبط وعدم ارتكاز على أساس من النظر في حاجيات الشعب وطريق الهروض به من تلك الأمور التي تدفع للتفرقة الفكرية والعاطفية بين أبناء البلد الواحد وقد كان الغرض من التعليم غير ذلك . فهذا التعلم يتجه في أغلبه الى نسيان ديننا وتقاليدنا وأدبنا . والدين والآداب والتقاليد هي الوسائل الثلاث التي بها يمكن أن نتعرف شخصيتنا . ومن ناحية ثانية يتجه هذا التعلم الى نسيان أو إهمال بعض ما لا غنى عنه مما أحدث العلم وبقاء علوم الشرع واللغة على وضع قديم لا ينفق كثيرا مع عصرنا هذا .

فلا بد لنجاح الدعاية من جديد وقسيم يدرس هذا وذلك ليخرج في النهاية بمعاني ياتق
فيها قديما يجديدا ويحدد ماضيها وحاضرنا فلا نعيش غرباء عن أنفسنا أو عن العالم... وهذا
النوع من الإعداد مفقود مع الأسف . ولكن الأمر مع ذلك غير ميثوس منه متى صدقت
الرغبة وسرنا على السبيل .

وإذا كانت الوسائل اليوم ليست كافية لكل الكفاية فلنعمل اليوم بما لدينا ولنعد لغدنا
المنتظر عبثه فليست الحياة غير مستقبل يرتجى وحاضر يستكمل ما وسعت الطاقة .

وأخيرا ما أثر الدعاية السليمة في توحيد الأمم ؟ أحسنيني لقد قلت كل الشيء .

فليست الدعاية السليمة غير إعداد الأهداف للشعب وإحياء شخصيته في نفوس أبنائه
والحرب الجارية نعلها على مظاهر التماثل الذي انتشر في كل مكان ووسط وإذا استطعنا
النضاء على عنصر التماثل وحده فبند أوجدنا المسؤولية على عاتق الأفراد وليس أمام المسؤولية
حين نريد أن نتصير إلا معرفة الهدف ثم السير الملح الحثيث .

وأخيرا ما أثر الدعاية السليمة ؟ لا أقول أكثر من أنها إحياء لمجد الشعوب وخلق لكرامتها
وتحديد لما يلي من فضائلها وتوفير أسباب سعادتها وتكوين ذاتيتها على وضع مهيب ونظام
مستقر وحياة كريمة .

وقفنا الله تلير هذا الوطن وإنقاذه ما

مصطفى الصاوي

وَأين الحوادث من صحبة كتحل يمن وأنت الزهر

قليلون عند امتناع القطف كثيرون عند رجاء الثمر

شوقي